محاضرة:

المؤثرات الأجنبية في النقد العربي

تمهيد:

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين وأواسط الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوبًا إلى بلاد الترك والروم شمالا. وكانت تضم أوطانا كثيرة. وتعيش فيها شعوب متباينة في الجنس، واللغة والثقافة، غير أنّها لم تكد تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجًا قويا، ومضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي. وقد أسرع من أسلموا من شعوب إيران والعراق، والشام ومصر، وبلاد المغرب إلى تعلّم لغة القرآن الكريم، والحديث النبوي. وبعد فتح هذه البيئات بنحو قرن نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها.

وأقبل الفرس على التّعرب إقبالا منقطع النظير فأكبّوا على تعلم العربية حتّى أتقنوها فلا نكاد نتقدّم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء، والكتّاب والشعراء منهم. فقد تألّق نجم أبي حنيفة في درس الشريعة الإسلامية، وسيبويه في جمع العربية وأصولها النحوية، وابن المقفع في صناعة الكتابة، وبشار وابي نواس في الشعر وغيرهم كثر. وتحولت الثقافات العامة التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة إلى العربية، وأهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية والفارسية، واليونانية.

وكانت الثقافة الهندية تصل عن طريق الفرس وما سقط إليهم منها، وعن طريق من دخلوا منهم حديثا في الإسلام واندمجوا في عرب العراق. وكانت الثقافة الفارسية أبعد تأثيرا في المحيط العربي لهذا العصر. فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام واقتبس العرب كثيرا من صور حياتهم في المطعم والملبس، وبناء القصور، ونظام الخدم. وأخذوا يحكون عن أقاصيصهم وأخبار ملوكهم وحكمائهم.

وكانت الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثّرت في الفكر العباسي، عن طريق النّقل والتّرجمة، وليس عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب. حيث لم يختلط العرب باليونان والبيزنطيين إلاّ اختلاطًا محدودا عن طريق العبيد، والرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في سوق النخاسة.

ازدهرت الحياة العقلية في العصر العباسي الأول (132هـ - 232هـ)ازدهارا كبيرا وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تمثّل حضارات الأمم العريقة في أثرها في العلم والثقافة. فكانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلّى عليها أثر هذه الثقافات.

كان النفوذ في دولة الخلافة للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشارا كبيرا على يد الوزراء وكتّابهم الفارسيّين، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية، والعرب الذين أتقنوا الفارسية إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة والثقافة، وإنتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادرا عن عقليتين وثقافتين. وكان رجال العلم في الإسلام أكثرهم من العجم. ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب، والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية.

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول وأحدثت أثرها في العقول والأفكار. وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج هذه الثقافات، وصلة بين الفلسفة اليونانية والأدب. فقدموا معاني للأدباء لم يكونوا يعرفونها. وفي العصر العباسي الثاني (232هـ - 334هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء.

1-أثر الثقافة الأجنبية في الحياة الفكرية والأدبية العباسية:

انتشرت في العصر العباسي ثقافات مختلفة نتيجةً لاختلاف السكان من حيث أصولهم وامتزاج بعضهم مع بعض في السكنى والتزاوج، ونمو الحضارة نموّا يستدعي علمًا واسعًا

لكثير من شؤون الحياة، فإلى جانب الثقافة العربية الإسلامية ظهرت الثقافة الفارسية، والثقافة اليونانية والثقافة الهندية، كما كان هناك ثقافات دينية كاليهودية والنصرانية.

أ -الثقافة الفارسية: إنّ الأدب في كلّ عصر ظلُّ الحياة الاجتماعية وقد ظهر أثر الثقافة الفارسية في مختلف ميادين الحياة العباسية وفي النواحي الاجتماعية والأدبية على وجه الخصوص، وكان مظهرها واضحا جليّا فالناس يتّخذون من مناسبات الفرس واحتفالاتهم أيّامًا يحتفلون بها، وأصبح القضاة وعظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس، تسرّبت بعض الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية، وانتشرت مجالس الغناء واللّهو، والشراب وهي مجالس الفرس. فهم ميّالون إلى الإفراط في الشراب والغناء وظهر ذلك مترجما في شعر تلك المرحلة.

وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب العربي غير صفة اللهو والمجون، فكتبهم التي نُقلت من الفارسية إلى العربية (ككليلة ودمنة، وهزار إفسانة) أساسا من الأسس التي بُنيَت عليها الكثير من القصص العربية. " فقد عني المترجمون بترجمة العديد من الكتب الفارسية في التاريخ والأدب، فترجم عبد الله بن المقفع " كتاب خداينامه " وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم. كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية "كليلة ودمنة" وكتاب " التاج في سيرة أنوشروان " وكتاب " الأدب الكبير " و " الأدب الصغير "، وكتاب " اليتيمة ".

ولم يتوقف الأمر عند حدود الترجمة فقط، فسرعان ما ظهر نتاج أدبي مميّز أفرزته فئة من الأدباء بروح عربية فارسية فقد " كان كثير من الفرس الذين أتقنوا العربية، وتثقفوا الثقافتين الفارسية والعربية أنتجوا في الأدب العربي نتاجًا جديدا كالفضل بن سهل، وسهل بن هارون، وابن المقفع. كما نرى قوما من العرب تعلّموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية، فعكفوا على كتبها يتدارسونها ويمعنون في دراستها ثم يُخرجون أدبا عربيا، فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب مثل " العتابي " الشاعر العباسي الذي تثقف بالثقافة الفارسية".

ب -الثقافة الهندية: عرف العرب الحضارة الهندية منذ العصر الجاهلي، وتعاملوا معهم من خلال التجارة، وكان العود من أهر السلع الوافدة من الهند " كما أولعوا بالسّيوف الهندية، وسمّوا السيف المطبوع من حديد الهند المهنّد. ولمّا فتح المسلمون فارس والعراق فكّروا في الهند، فتتابع المسلمون يغزونها ويصيبون منها المغانم حتى وجه الحجاج محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند ففتح جزءا منها، وهو المسمى بالسّند سنة 91 هـ.

وقد غنموا مغانم كثيرة، وسَبوا سبيا كثيرا. وأصبح الجيل السندي عنصرا من العناصر المكوّنة للأمة الإسلامية. وسرعان ما رأينا الموالي الذين جُلبوا من الهند، وغُنموا في الحرب نبغ منهم ومن أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدّثون. فمن الشعراء كان أبو عطاء السّندي. واشتهر من اللغويين ممّن أصله هندي ابن الأعرابي، ومن المحدثين أبو معشر نجيح السندي.

أثّر الهنود في الثقافة الإسلامية من ناحيتين ناحية مباشرة باتصال المسلمين أنفسهم بالهند عن طريق التجارة وعن طريق الفتح الإسلامي، وناحية غير مباشرة بنقل ثقافتهم بواسطة الفرس، فقد اتّصل الفرس بالهنود اتّصالا وثيقا قبل الفتح الإسلامي فلمّا نُقلت الثقافة الفارسية إلى العربية نُقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها.

وقد عدّ المسلمون الهنود إحدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة وهي: الفرس والهند والروم والصين. وقال الجاحظ فيهم: اشتهر الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطّب والخرط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة.

لقد كان للهنود فلسفة، كما انتشرت لديهم ديانة البراهمة والبوذية. وقد أطال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند، كما توقّف عند مسألة تناسخ الأرواح التي يعتقدون بها. وقد عرف المسلمون هذه الفلسفة وهذه المعتقدات وناقشوها. كما اتّصل المسلمون بالهند في الرياضيات وأخذوا عنهم قبل أن يتّصلوا باليونان وكذلك الشأن في الفلك.

ولم يبتعد الأدب عن هذا التواصل الثقافي بل تأثر الأدب العربي ببعض التفاصيل الهندية " فعُرِّبت ألفاظ هندية، ودخلت آراء في الأدب والبلاغة نُقِلت إلينا عنهم. كما نُقِلت العديد من القصص الهندية، وقد أولع العرب بها من ذلك قصة السندباد. كما أن في كتاب ألف ليلة وليلة قصصا دلّ البحث العلمي أن أصلها هندي. كما نُقلت إلى العربية الكثير من الحِكم الهندية التي تتّفق والذوق العربي. وقد كانت هذه القصص والحِكم عنصرا هامّا من عناصر الأدب العربي.

ج-الثقافة اليونانية: تمت الإشارة في موضع سابق إلى أنّ أثر الثقافة اليونانية لامس الجانب الفكري، خاصة وأنّ العرب في ذلك الوقت عرفوا عصر تدوين العلوم العربية، فتسرّبت الثقافة اليونانية إليها وصبغتها صبغة خاصة، كان لها تأثير كبير في الشكل والموضوع.

فأما الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني فقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صبّت في قالبه، فقد تتابع المترجمون يترجمون الكتب المنطقية. وقد كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي فقد اصطبغت طريقة الجدل والبحث والتعبير بأساليب المنطق، وأصبحت الكتب ترتّب وتقسّم ترتيبا، وتبويبا منطقيا. وأما في الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في الفلسفة العربية الإسلامية.

كما انتقلت بعض آثار الثقافة اليونانية إلى النواحي الاجتماعية في المجتمع العربي نتيجة امتزاج الجنسين العربي واليوناني الروماني فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين العرب، ولهم عادات وتقاليد وأفكار وآراء في نظام الحكم، ولهم فنون من غناء وتصوير وما إلى ذلك. فكان العرب يقتبسون ما تيسّر لهم.

وتأثر الأدب العربي بالثقافة اليونانية فنجد ألفاظا يونانية عُرّبت، وقصصا يونانية نُقلت إلى العربية إلى جانب كتب في التاريخ وفي مجالات مختلفة. كما تُرجمت حِكم نُسِبَت إلى فيثاغورس وسقراط، وأفلاطون وأرسطو. إلى جانب كتب الفلسفة والمنطق. ولكنّ تأثير اليونان كان عميقا في الفلسفة والعلوم الرياضية والطبية، ضيّقا خفيفا في الناحية الأدبية.

2 -أثر الثقافة الأجنبية في النقد الأدبي:

اصطبغ الأدب عموما والشعر على وجه الخصوص بملامح فنية تتناسب ومتغيرات الحياة في العصر العباسي، وبعد أن كانت صفة الفطرة والسليقة هي ما يميّز الشعر في العصور السابقة، تحوّل إلى صناعة وفنّ يواكب تطوّر الذوق في هذا العصر، وكذلك الأمر بالنسبة للنقد الأدبي الذي استفاد من قواعد وأصول نقلته من الآراء المرتجلة، السطحية أحيانا، إلى نقد مبني على توجّه علمي مؤسّس له مرجعياته التي يستند إليها.

ولقد كان لانفتاح الثقافة العربية على غيرها من الثقافات دوره في هذا الشأن فقد بدأت الثقافات الأصلية والوافدة تتفاعل في العقول، وتُحدِث تحولا كبيرا في الذوق العباسي، وقد شمل هذا التحول الشعر فبدأ يتّجه إلى الثراء والوحدة وأخذ الشاعر يحدد لنفسه إطارا فنيا ينظم فيه، وبرزت اتجاهات فنية استقطبت بعض الشعراء فتحمّسوا لها وأقبلوا عليها كمذهب البديع أو شعراء الصنعة، وكمذهب المطبوعين. كما شملت الناقد الذي بدأ يلاحظ الظواهر والقضايا ويبحثها بموضوعية ويبدي آراءه فيها على أساس من اتجاهاته، وميوله ومعتقداته الفكرية، ويحلّل ويعلّل ليصل إلى أحكام واستنتاجات مفيدة.

حاول الناقد العربي الاطلاع على نتاج الفكر، والنشاط الأدبي اليوناني والفارسي من خلال الكتب المترجمة، والاستعانة بما يتناسب والذوق العربي. وقد أثّرت هذه الثقافات في النقد تأثيرا كبيرا وكانت من أقوى عوامل ازدهاره لأنها وجهته لمعايشة قضايا عصره، وجعلته يبعد عن الآراء العاجلة وانتحى ناحية منهجية وموضوعية. وكانت هذه الثقافة بما أودعته العقل من ثراء بداية مرحلة نقدية جديدة من اليقظة والوعي والتجديد، فلم يعد الناقد يتوقف عند الآراء المتفرقة أو المبعثرة بل راح يُسَجِّلُ أفكاره وانطباعاته في إطار فلسفي يلتزمه في وعي وتحديد.

وما تجب الإشارة إليه هو الدور الذي قامت به حركة الترجمة، والتي كانت سببا في انفتاح المناخ العربي الفكري على الساحة الثقافية المحيطة به، وحتى البعيدة عنه.

وقد عمل نشاط حركة النقل و الترجمة في العصر العباسي على إثراء الأدب و النقد بما تُرجِم من فلسفة اليونان و منطقهم، فقد صبغت عقلية الأدباء و النقاد بآثارها العميقة في التفكير، و المعاني و طرافة التقسيم و الخيال، كما أثرى كذلك بالمتَرجم إلى العربية من قصص الهند و أدب الفرس، فكانت الترجمة عاملا قويّا من العوامل التي دفعت النقد العباسي إلى الأمام، ذلك أنه قد انتقلت بترجمتها مظاهر أدبية و نقدية كان لها أثرها في الحركة العقلية للنقد، فوُضعت النظريات، وتدخل المنطق في الجدل و الحوار، و أُلّفت الكتب النقدية التي تزخر بالمناهج العلمية و العقلية التي أسّسها النقاد العرب.

وقد ظهر الأثر اليوناني واضحا في تطور النقد العربي، ذلك أنّ المعالجة العلمية والمنطقية التي كان يعتمدها اليونان في نقدهم لأدبهم وشعرهم بالتحديد قد انتقلت ملامحها إلى الساحة العربية. وأوّل ما ظهر كان عند المتكلّمين الذين رأوا حاجتهم الملحّة للفلسفة حتّى يدفعوا المطاعن عن القرآن وكانت دراسة الفلسفة والمنطق وسيلة لتمكين المعتزلة والمتكلّمين عامة من الحجاج العقلي.

تطبيق: هذا التطبيق يهدف إلى الاطلاع على بعض ملامح الأثر الأجنبي في النقد العربي. من خلال الوقوف عند الأثر اليوناني في كتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر. وبإمكان الطلبة البحث في الأثر الأجنبي عند فلاسفة آخرين بنفس الطريقة.

الأثر اليوناني في كتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر:

لقد وضع قدامة بن جعفر من خلال كتابه " نقد الشعر" أسس النقد الموضوعي في تاريخ النقد العربي، وهو الذي أشار إلى المنافذ التي يستطيع الناقد المنصف أن يطل منها على ما يريد من الأعمال الأدبية، ويضع حدّا للإسراف في الإدلاء بالأحكام التي تنبعث عن الذاتية والهوى، ويحاول أن يجعل من النقد صناعة واضحة المعالم، بيّنة الحدود.

وكتاب "نقد الشعر" هو كتاب في تحديد ماهية الشعر، ونعت عناصره الأربعة: اللفظ والمعنى، والوزن والقافية، وشرح الوجوه التي يتم بها الائتلاف بين تلك العناصر ليتم للشعر جماله وجودته، والعيوب التي تقعد به عن بلوغ درجة الجمال والكمال.

وإذا نظرنا إلى القواعد، والأصول التي تضمنها " نقد الشعر" سيتضح لنا أن بعض هذه القواعد أفادها قدامة من تقاليد الشعر العربي وآراء النقاد العرب، وبعضها استنبطها بفكره و ذوقه الخاص، بينما هناك بعض القواعد التي استفادها من مصادر غير عربية. وكان المنطق والفلسفة اليونانية أبرز هذه المصادر الأجنبية. ففي "نقد الشعر" نصوص تدل على وثيق صلة لقدامة بالفكر اليوناني ومعرفته بثمرات هذا الفكر، مثل كلامه في الحدِّ والنوع، والجنس، والذات والعرض، وكلّها مصطلحات منطقية. كما ظهر أثر الفلسفة اليونانية كذلك في المواضع الآتية:

1-من الواضح أثر الفلسفة، والمنطق في تصور قدامة للشعر، فقد كان للمنطق أثر في طريقة تأليف الكتاب وتقسيمه، وتبويبه. ورأى قدامة أن يحصر ويحدّد المعاني الشعرية في أغراض ستة (المديح، والهجاء، والرثاء، والوصف، والنسيب، والتشبيه) وحصر المعاني بهذه الطريقة يوحي بأثر يوناني.

2-الكلام في "الغلوّ": فإلى جانب الذوق العربي، وآراء بعض النقاد الذين يستشهد قدامة بقولهم: أحسن الشعر أكذبه، فإنّنا نلمس الأثر اليوناني في قوله: "وكذلك يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم" وإن كان لم يُصرّح بصاحب هذا الرأي من فلاسفة اليونان وهو "أرسطو" الذي يقول في كتاب "فن الشعر": " إن المستحيل المقنع في الشعر أفضل من الممكن الذي لا يقنع".

3-رأى قدامة في كتابه " نقد الشعر" أن المديح ينبغي أن يكون بالفضائل النفسية: العقل والشجاعة والعدل والعفة، وهو رأي مستفاد من قول أرسطو في كتابه " الخطابة":

" الجميل هو ما يستأهل المدح، لأنه يؤثر لذاته، وما يؤثر لذاته يمدح،....و إذا كان هذا هو الجميل لزم أن تكون الفضيلة شيئا جميلا...وأجزاء الفضيلة هي العدالة، و الشجاعة، و المروءة، والعفة، و السخاء، و العظمة، والتسامح، وصدق الحدس، و الحكمة"، ومن الواضح أن قدامة يشارك أرسطو صراحة في ثلاث من تلك الفضائل وهي: العدل والشجاعة، والعفة، وشاركه في الرابعة بالمعنى، فإن مفهوم العقل قريب من مفهوم الحكمة. أما الفضائل التي زادت عند أرسطو فقد جعلها قدامة فروعا للفضائل الأربع الأصول التي ذكرها: فجعل ثقابة المعرفة (وهي صدق الحدس عند أرسطو) والحلم (وهو ما عبّر عنه أرسطو بالتّسامح) قسمين من أقسام العقل، ومن أقسام العدل والسماحة، وإجابة السائل والتبرع وما جانس ذلك (وهذا يقابل السخاء في فضائل أرسطو).

4-يعدّ قدامة الحماية، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدوّ، وقتل الأقران من أقسام الشجاعة، ومن فضائل النفس التي يمدح بها، وكذلك يرى أرسطو أن عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم لأن مقابلة المِثل بالمِثل عدالة.

ولم تقف آثار الثقافة اليونانية في كتاب " نقد الشعر" عند آراء أرسطو، بل ضمت إليها من أفكار غيره " كجالينوس" الذي ذكره قدامة في حديثه عن بيتين من الهجاء.